فى أرض الشمس التى تسطع وتتلألأ

فى هذا الزمن الصاخب، حيث يسود العنف، ويعلو الدمار والفتك والشراسة، نسعد إذ نلتقى على غير انتظار بفن المصور الفرنسى المعاصر دانيل جوجيه، إنه واحة وارفة الظلال، نستريح عندها من عناء سفر عبر صحارى. نرتوى برشفات من ماء عذب ونتخفف من أحمالنا الثقال، ونرطب جلودنا الملتهبة بنسمات رقيقة، وحتى إذا عدنا بعد ذلك نشد الرحال عبر الصحارى اليومية، فلن يكون الطريق أمامنا بمثل المشقة التى كابدناها من قبل نزولنا بالواحة، فسوف نكون قد حملنا معنا تذكارات من فن جوجيه، عيون مفعمة بالحنين، وشفاه تهمس بوعود، عيون تعزيك، وشفاه تهمس وتناديك، وإيماءات تدعوك وتمنيك.

من الذى يجلب للإنسان عزاءً؟

لوحات جوجيه قد تخيرت لنفسها دورًا فى هذه الحياة تؤديه، هو دور المعزى، تتواضع ولا تستعلى، لا تصخب بنظريات، ولا تدعى معرفة، ولا تؤرقك بطموحات، هى فحسب تقنع بأن تؤدى لك الدور الذى ما عاد الكثير يؤديه، تؤدى لك دور الصديق، تعالوا إلى يا ثقيل الأحمال، وأنا أريحك، هذا ما تقوله لكل من يطالعها، ومن منا فى هذا الزمن

الصعب لم يضح ثقيل الأحمال، وبذلك عاد الفن يتبين له دوراً يؤديه للإنسان المعاصر، من قال: إن الفن ماعاد له فى الحياة الحديثة وجود؟ يكفى أن تتأمل لوحات جوجيه، وسرعان ما ستتبين خطأ هذا الزعم، بل ان الحاجة أضحت فى هذا الزمن أشد من أى زمن آخر إلى الفن، إلى الفن الإنسانى، وقد أضحت هذه الحقيقة خافية. من ذا الذى يجلب للإنسان المرهق فكرًا وروحًا، للاهث، المتوتر، المستنفر على الدوام، عزاء ومواساة، من يلطف توتراته ويعيد السكينة إلى قلبه، والتوازن إلى وجوده ووجدانه؟ من يفعل كل ذلك سوى الفنان؟ بعض الفنانين اليوم اتجهوا فى الطريق العكسى وأنتجوا فنًا زاد من حيرة الإنسان وبلبلته ومعاناته، بعض الفنانين اليوم شاركوا فى إيصال الإنسان إلى درجة قصوى من الإحباط، ووصلوا معه إلى مفرق طريق، لا رجعة فيه، ولا مخرج منه سوى الانتحار بمعانيه وصوره الكثيرة، ولكن لا نلبث أن نقول: إن هذه ليست مهمة الفن الإنسانى، الذى يرقى إلى مستوى الرسالات الكبرى، الفن فى العصر الحديث – وذلك من خلال تجربة جوجيه – ترياق، باسم، عزاء، ملاطفة، شد للأزر من أجل تحمل المشاق التى لم تكن لتخطر فى بال أحد، سوى أصحاب النبوءات السوداء، وهنا يأتى الفن ودوره، ليقول «لا» فى وجه البؤس واليأس والشقاء، ليضىء فى الظلمات المدلهمة شمعة، ليمد فى قفر الحياة اليد بزهرة، قد يستخف البعض من ذلك، ولكن أن الأوان أن نعرف كيف نكون متواضعين أصفياء القلب حتى لا نغلق أمام الإنسان الحديث الجنة الأرضية الوحيدة التى بقيت له.

وقد عرف جوجيه مهمة الفنان هذه فى عصرنا المدلهم بالظلمات، فلا تأتى لوحاته دويًا مثل دوى القنابل والتفجيرات المتعددة الأسباب فى

مختلف أرجاء المعمورة فى يومنا هذا، بل تأتى نغمة من أوتار كمان، أو ناى أو قيثارة، هل أسعدت لحظة بأن تسمع قرويًا أو راعيًا يبث نايه بعضًا من أشجانه، أو أشواقه ماضيًا فى أمسية صيف على ضفاف النيل لتبتلعه الظلمة والمجهول، ويبقى فى أذنيك وصدرك من بقايا عزفه البدائى ما يجعلك أكثر تذوقًا لأمسيات الصيف وقمرها الساطع فى أديم السماء، يبعث إليك مع ضيائه الفضية الحانية أحاديث مثل تلك التى تتسلل من لوحات جوجيه الرقيقة إلى فؤادك؟

خصيصة تتميز بها لوحات جوجيه وتجعلك تتساءل إزاءها كى تبلغ إلى فهم حقيقة فنه، ما الذى على جوجيه الذى يحيا فى واحدة من أكبر عواصم الفنون فى يومنا، ألا وهى باريس، لا يمضى فى ركاب من راحوا يقتفون خطى الأساليب الحديثة، وينتجون لوحات يدافعون عنها إزاء تمرد الذوق الفردى والجماهيرى «بالعصرية»؟ لماذا؟ حقا، لماذا؟ ليس من السهل أن تأتيك الإجابة، ولكنها لابد أن تأتيك من منطلق أن هذه «العصرنة» للفنون الحديثة، تؤدى فى النهاية على حساب التضحية «بالإنسانية» التى يجب أن يتصف بها الفن الحقيقى أول ما تتصف، وليس بالسهل أن يقاوم الفنان الحديث إغراء الانجراف إلى «العصرية» ولو على حساب «الإنسانية» فهو من أجل مقاومة هذا الإغراء بحاجة إلى صفات اتصف بها موقف جوجيه من «الفن» و «الحياة» معًا. وأول هذه الصفات هى التواضع والزهد والفهم وتحمل التبعة. وقد جاء فعلاً فن جوجيه متواضعًا لا يستعلى على المتفرج، ولا يشعره بالضآلة فيؤدى به إلى هوة الإحباط القاتمة، وجاء فنه أيضا متحليا بالزهد الذى يرقى من خلاله الفنان الواعى إلى مدارج التفرد والشفافية، ومن خلال عمليات

جريئة من الحذف والإقصاء ومقاومة إغراءات المواضيع استطاع جوجيه أن يبنى عالمه على مفردات محددة دون تجاوزها إلى غيرها، وأطرف ما اتسمت به تدابير الحذف عنده إبعاده لمعالم العصرية التى سرعان ما يداخلها التغيير والزوال. فهو يقتصر على مقومات تكاد تضحى تقليدية، من صبايا وزهور وأماكن هى مرافئ رحيل أو عودة من أسفار، وكل هذه مشاهد غمست فى بوتقة رؤيته الداخلية، فبدت مشاهد ذاتية، وإن احتفظت بإيماءاتها إلى العالم الخارجى، فأين نحن فى لوحات جوجيه؟ ومع من نحن؟ وفى أى زمان؟ لا إجابة محددة يمكن أن يدلى بها، فالزمان والمكان والشخصية غير حبيسة فى أطرها الموضوعية، إنها مغموسة فى محبرة الروح التى تفضى بالمشاهد إلى ماليس محدودًا بزمان أو مكان أو بشر، هذه لوحات جوجيه إذن، وإلى أى مدرسأو مذهب تنتمى أهى إلى المدرسة الانطباعية أقرب؟ إلى تلك المدرسة التى أخذ فنانوها مثل أوجست رينوار وادجار ريجاه وادفار مانيه وغيرهم على عاتقهم أن يلتزموا بالواقع أشد الالتزام فجاءت تصاويرهم رغم ذلك إلى عالم الأحلام والرؤى الذاتية أقرب؟ أهى تنتمى إلى لوحات الوحشيين ومنهم ماتيس وفلامنيك وديرين ودوفى، التى جاءت ألوانهم فى لوحاتهم كى تبنى أكثر مما تحاكى، أم هى تواكب أعمال بعض من الفرسان الزرق، وبالأخص أوجست ماك؟ أم هى تمضى فى ركاب مارى لورانسين وتتشرب بسمات من لمسات فنها النسائى، أم هى أقرب إلى بابلو بيكاسو فى مرحلتيه الزرقاء والوردية على الأخص؟ أما توغل إلى ما هو أقدم منها صاعدة إلى أعمال لواتو وفراجونار وبوسان؟ أم تشتد اقترابا من أعمال الرمزيين من أمثال أوديلون ريدون فتضحى إلى حد بعيد «رمزية»

بدورها؟ أم هى تتلاقى مع أعمال لرمبرانت وفيلاسكويز ودافينشى وجواردى وتيرنر وكورو وغيرهم ممن عبر جوجيه صراحة عن ارتباطه بهم- وما يكنه لهم من تقدير خاص؟ أم هى تنزل لتأخذ بعضًا من معالم الأحلام التى أتت بها السيريالية، وأنصارها وعلى الأخص مارك شاجال وبول ديلفو بشخوصه التى تتكرر ولا تتغير مثل شخوص جوجيه أيضًا؟ أم ماذا غير هذا وذاك؟ الحق يقال، إن لوحات جوجيه تعبر أعمال هؤلاء وغيرهم ولكنها تغنى عن هذه أو تلك وتمضى لما هو خاص بها ومتفرد تماما. أهى تعبر المسافات لتأتى إلينا وتقترب من حيث لا تدرى من بعض بورتيهات الفيوم ومن أعمال لجمال محمود وغيره أيضًا؟

ماذا تريد أن تقوله العيون؟

قلنا إن جوجيه استطاع فى هذا الزمن الصعب أن يمضى بسفينته فى خضم البحر الصاخب، ومثل الربان الماهر عرف أنه كى تمضى سفينته تشق طريقها عليه أن يتخفف من محمولات كثيرة فاستبقى لعالمه مقومات محدودة تميز بها عالمه وتفرد.

لوحات تهدف أن تبعث فى نفس المتفرج راحة ودعة فى هذا الزمان الصعب المرهق كما قلنا، ولكنها أيضا ليست راحة سطحية بل هى أعمق من ذلك، فهى راحة تبعث فى النهاية نوعاً من التأمل الهادئ الرصين الوديع، تضمد الجراح، فتلتئم وتمكن الكيان الإنسانى بعد ذلك من أن ينبض بالحياة.

من هم نساؤه تلك، اللاتى سيواء رفلن فى ثيابهن أم تخففن منها لا ينتمين إلى زمان أو مكان محدد، ويرتقين بالفن إلى مستوى من الأبدية

التى وصلت إليه من قبل نسوة بول ديلفو أيضا؟ إنها تقول لنا الكثير دون أن تنبس ببنت شفة، وذلك بالأخص من نظرات عيونهن الجسور فى حياء، التى تنظر إلينا دون أن ترانا، وتفرض دون صخب علينا نفوذها تاركة فى أعماقنا انطباعًا لا يمحى سريعا بجسارة وحياء، ولا يتوصل إلى ذلك إلا من كان مثل جوجيه فنانًا قديرًا، ويتأتى له أن يبلغ بلوحاته أن تفرض مضامينها علينا دون أطناب. ماذا تريد أن تقوله تلك العيون؟ هذا ما علينا نحن أن نستنتجه ونتخلصه دون أن يفرض علينا الفنان إجابة محدودة بذاتها.

وجوجيه لم يتوصل على أى حال إلى التعرف على العالم الذى اختاره ليرتبط به فى هذا العصر الصاخب الذى تعددت المذاهب الفنية وتنوعت إلى حد لم يسبق له مثيل، من خلال دراسة واستيعاب بقدر ما كان ذلك من خلال مذاق جذرى ليس من السهل التخلص منه أو الإعراض عنه دون التردى فى الآلية والضياع والتبعية.

صبايا جئن إلينا من زمن البكارة، يحملن إلينا شاعرية ما فى هذا الكون الشرس، فى أطر متعدية للزمان والمكان، تحمل فى طياتها تأكيدًا بأن ماهو متخيل هو بدوره حقيقى عبر الصدق الذى يختلط فى لوحات جوجيه موضوعيًا بكل ما هو دفء وأريج وظلال وأثير ونغم، ويؤازره شكليًا كل ما من شأنه أن يتخفف به العمل، ويعفيه من ثقل المادة، ليسمو المشهد إلى مستوى من الرهافة والأثيرية، باقتصاد فى التفاصيل وذوبان الأطر الخارجية فى الفضاء التشكيلى اعتمادًا على معالجات ذاتية، وإن التحمت بأصول كلاسيكية، مع إعراض عن انشغالات العصرنة،

وتمسك بالمنظور والبعد الثالث، مما يكسب المشهد عمقًا يضفى على العمل مزيدًا من الإيحاءات بظلال وأضواء وسماوات وبحيرات وشجر، وتتحاور هذه مع ما ارتسم على وجوه النسوة والصبايا من عواطف وأفكار وتذكارات، ولمسات الفرشاة عريضة وعجينة الألوان خفيفة والخط قد تحرر من كل تفاصيل تكبله والانشغال التقنى الأول هو بخلق الأجواء، الأجواء التى لا تلبث أن تستغرقنا، وننغمس فيها، وتنبض بما ننبض به من أحاسيس وأفكار، ويبحر بنا دانيل جوجيه عبر أسلوبه صاعدًا بنا حقب الفن، مكتشفًا بطريقة ذاتية جوهر الرؤى القديمة الثمينة، وأطرها التى أفرغت فيها، وهو فنان أصيل لا تخدعه الصيغ وتحبسه فى إسارها، يقول: إنه لا يرى حدودًا فاصلة وحاسمة بين ما هو تشخيص وما هو تجريد، وهذا فعلًا ما يعرفه الأساتذة الكبار، وهو فعلًا يمارس التجريد فى ثنايا لوحاته التشخيصية ويستعين به من خلال لمسات فرشاته العريضة لإضفاء مزيد من الفراغات فى لوحاته، فتتسلل منها النسمات والضياء.

سئل دانيل جوجيه ذات مرة أين يحب أن يعيش فأجاب حيث تسطع الشمس وتتلألأ، وها هو يأتى إلى بلادنا، فمرحبًا به فى أرض الشمس التى تسطع وتتلألأ.

شباب أبدى:

وتتواكب أعمال جوجيه كثيرًا مع أعمال موسيقية من صنف لوحاته، ويشير هو نفسه إلى حبه الشديد على الأخص لموتسارت، ويعرج على الألوان فيقرر أن ما من لون بذاته يمكن أن يحقق هدفًا تشكيليًا وحده، بل لابد أن يدخل فى حوارات مع ألوان أخرى يتناغم معها، وهو

ما يفعله فى لوحاته فتأتى التناغمات اللونية عميقة وجذرية فى أعماله وتعتمل فى اللوحة ككل كما تعتمل فى كل جزئية من جزئياتها، ومن الانطباعات التى ينجح أسلوب جوجيه فى تحقيقها تلك الأثيرية «الأجوائية» والإشعار بأنك لست إزاء مجرد مشهد داخل إطار محدود، بل إن إطار المشهد يتسع كثيرًا فيصل المشهد إلى درجة من الانفتاح والرحابة والتجرد عن التحديد، حتى لنكاد نعتقد أن تلك النسمات التى تهتز لها أطراف الغلالات الرهيفة إنما ترد من خارج إطار اللوحة التى تشغلها تلك الصبايا، وقد نجح جوجيه فى تحقيق ذلك فى لوحاته الزيتية المنفذة على ورق بما يضفى عليها طابع لوحات الاكواريل، ويميل الفنان إلى وضع ألوان داكنة يدفع فى ثناياها كثيرًا من الضوء فتبدو مثل الحلى المتلألئ المصقول بلمساته الرشيقة اللدنة، والتى تتحاشى الخطوط المستقيمة والزوايا الحادة، والميل أكبر وأوضح إلى الخطوط الانسيابية العضوية التى لا تحدها فى تدفقها الحيوى فى أرجاء اللوحة حدود ألا تحاشى الافراط المخل بوقار العمل، ذلك الوقار الذى لا تفقده فى أى عمل من أعمال جوجيه أيا كان موضوعه، وأيا كانت معالجته الشجية له. وتتمتع أعمال جوجيه بخصيصة من التوازن الذى يضفى عليها مسحة كلاسيكية رغم عصريتها المؤكدة، ولكنها عصرية على أى حال ذاتية مستمدة من اقتناع الفنان بضرورة تحاشى ما يفعله المحدثون المعاصرون له.

والصبايا والزهور والشجر والثياب والماء بحرا كان أم بحيرة عناصر تتكامل فى أعمال جوجيه، ولكن أثمن ما تنقله إلينا أعمال جوجيه هو ذلك الانطباع بالشباب الأبدى الذى لا يلحقه ذبول أو زوال المرتسم

بالأخص على قسمات الصبايا اللاتى يطالعنك فى لوحاته.

وقد طرق جوجيه عديدًا من المرات موضوع المغنى الجوال وإذا كان هذا المغنى بالإضافة إلى زميله مهرج السيرك قد لقيا لدى المصور جورج رووه معالجات أضفت عليهما قسطًا من الحزن، إلا أن جوجيه قد عنى فى لوحاته للمغنى الجوال ان يطرد عنها مسحة الحزن هـذه رغم النظرات الساهمة والعيون المفعمة بشجن دفين يصل الأمر إلى حد الألم. وتروى لوحاته التى من هذا القبيل حكايات غرام، وأمانى فى لقاء وحسرة على فراق فى زمان انقضى، وزمان منتظر. ثمة أمل إذن يحدثنا عنه جوجيه بلغته التشكيلية ورؤاه الخاصة العذبة.

ويتمتع جوجيه ولاشك بموهبة الملون الممتاز، سواء استخـدم ألوان الزيت أو الجواش، كما يتمنع باقتدار فى الرسم، وبمعرفة تامة لما يجب أن يفعله كى يشيد لوحة موفقة، مع روابط قوية بأساتذة التصوير القدامى، وهو لا يبدو فى فنه منشغلاً بالرغبة فى حل مشكلة تؤرق باله، أو فى تشييد عالم جديد غير العالم الذى ينتمى إليه، على أنه أيضًا يبدو مشدودًا إلى شخصيات ليست من لحم ودم بقدر ما هى أثيرية قدت من أشعة القمر، فبدت أطيافًا تستحم فى أصبحة وادعة ممتدة لا يعكر صفوها شىء. وعالمه إلى عالم الأحلام أقرب، ويعطى إحساسًا قويًا بالضوء والمساحة، وحب الحياة، والحركة، أنه فنان استقل بفنه ونفسه ولم يخضع لجماعة، أو ينضوى تحت لوائها، وأدار ظهره عن هتافـات الفن الحديث وآخـر صيحاتـه، واكتفى بأن يغمس فرشاته وأقلامه فى الشعر والحقيقة.